# النقد العربي الحديث

## طبيعته ووجوهه ومكوناته

بقلم

أ.د. خليل الرحمن •

ثمة مدخلان لتناول مصطلح النقد الأدبي: أولهما مدخل تاريخي Diachronic يتبع مفهومه عبر العصور، وفي مختلف التقاليد الثقافية للأمم والشعوب المختلفة [1]، وثانيهما مدخل آني Synchronic ينظر في طبيعة هذه الفعالية المعقدة من وجهة نظر العصر الراهن، مستلهما التطورات الهائلة التي حققتها المعرفة البشرية المتصلة بهذا الحقل من حقول النشاط الفكري الرفيع، وخاصة في ميدان العلوم الإنسانية Humanities، كاللغويات والسيمائيات Semioties، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرها.

ورغم فائدة المنظور التاريخي في التعامل مع هذا المصطلح، فإن تبنيه ربما كان أكثر فائدة لدارس الأدب ومؤرخه منه للناقد الذي يعنى أساسا بمواجهة النصوص الأدبية – يشرحها ويحللها ويفسرها ويصدر أحكاما بشأنها إلى غير ذلك

---

• – مدير مركز الشيخ زايد الإسلامي.

[1] – كما نجد لدى كبير مؤرخي النقد الحديث رينية ويليك، وانظر Rene Wellek Literaray Criticism" in Paul Hernadi (ed).

من جوانب العملية النقدية التي تستهدف في التحليل النهائي تطوير عملية الإنتاج الأدبي في المجتمع المعني به.

ومن هنا فإن تفحص طبيعة النقد الأدبي على هدي ما تقدمه الدراسات الحديثة في مختلف ميادين المعرفة، ربما كان أكثر جدوى في إيضاح جوانب هذا المصطلح لممارسيه المعاصرين في الثقافة العربية الحديثة في الوطن العربي، وربما في تحقيق نوع من الاتفاق على الحدود الدنيا من تضمنات هذا المصطلح ودلالته.

كيف يتبدى النقد الأدبي لنا؟.

قد أمسك رواية ما، وأقرأ صفحات منها، ولكني ما ألبث أن أدعها جانبا، وأنصرف إلى عمل آخر، وقد استمع إلى قصيدة في أمسية شعرية، ولكني سرعان ما أتشاغل عن منشدها بالتفكير في شأن من شؤون حياتي، وقد أقرأ قصة قصيرة ما وأنا في طريقي من مدينة إلى أخرى في قطار أو في حافلة، فتنسيني ما حولي ومن حولي فأمتلئ رغبة في أن أقرأ كل شيء خطة صاحبها، وأنتهز أقرب فرصة لشراء مجموعاته جميعا، وقد أنهمك في قراءة مقالة لا أدعها حتى أنتهى منها، وأسعى إلى أرشفتها وحفظها، وقد تروقني أبيات معينة في مجموعة شعرية، فأسرع إلى كتابتها في مذكرتي، أو أطلب من خطاط خطها في لوحة أعلقها في مكتبي.

إن جميع تصرفاتي هذه- ترك الرواية جانبا، التشاغل عن منشد القصيدة، شراء المجموعات القصصية، الأرشفة والحفظ، النسخ والتعليق- تنطوي على موقف ما، حكم قيمة ما، تعكس إعجابا أو نفورا، اهتماما مسرفا أو عدم اكتراث، شغفا كبيرا أو مقتا شديدا ولكنها لا يمكن أن تدعي بحال من الأحوال نقدا أدبيا، لأن النقد الأدبي ما لم يتبدى لنا في شكل إنشاء لغوي، وما لم يتخذ لنفسه ثوب

نص يقرأ أو يسمع، وبالتالي يمكن أن ينظر فيه ويدرس، فإنه لا يكون نقدا، إن النقد الأدبي إنشاء لغوي DISCOURSE عن إنشاء لغوي آخر هو الأدب [١].

وربما كان من أهم ما يميز النقد الأدبي عن غيره من أنواع النقد الأخرى هو أنه يستخدم الأداة نفسها التي يستخدمها موضوعه، وهي اللغة الطبيعية NATIONAL LANGUAGE تمييزا لها عن غيرها من اللغات الاصطناعية كلغة إشارات المرور، ولغة الثياب، ولغة الرتب العسكرية، وغيرها، إن أنواع النقد الأخرى كالنقد الموسيقي، والنقد الفني، والنقد التشكيلي، لا تستخدم العلامات الموسيقية، والرقص، والرسم والنحت، بينما يشارك النقد الأدبي موضوعه – الأدب– الأداة التي يستخدمها [٢]، وبالطبع فإن هذه المشاركة في الأداة لا تقتصر على مجرد هذا الاستخدام، فهي أداة تحدد طبيعة النقد الأدبي، وهي تعنى ثانيا أن النقد الأدبي في ثقافة ما، يشارك أدب هذه الثقافة في المكونات الأساسية، وعلى هذا فالمكونات الرئيسية للأدب العربي الحديث هي نفسها المكونات الرئيسية التي تشكل النقد العربي الحديث الذي يمثل الإفصاح عن الفكر النقدي الضمني الذي يستند إليه هذا الأدب في عملية إنتاجه.

وإذا ما رغب المرء أن يشير بإيجاز إلى هذه المكونات **CONSTITUENTS** فإنه يمكن أن يذكر أول ما يذكر اللغة العربية لا على أنها نظام لغوي LANGUAGE يحكم إنتاج أي كلام Parole فردي وحسب، ولا على أنها أداة للتفكير تحكم أنماطه، وإجراءاته، واستراتيجياته فقط، ولكن على أنها كذلك مجموعة نصوص TAXTS تتناقل شفاها أو كتابة، وتعود للأمة العربية في تاريخها الطويل منذ عصور ما قبل الجاهلية وحتى يومنا هذا، إن الأدب العربي الحديث مثله

---

[١]- انظر: Roland Barthes, Critical Essays translated from French by Richard Howard (Northwestern University Press, Evanston,١٩٧٢),pp٢٥٨

[٢]- انظر: Gerard Genette: Figures of " Literary Discourse translated by Alan Sheriden, Introduction by Marie-Rose Logan (Basil Blackwell, Oxford, ١٩٨٢)pp/٣-٤

في ذلك مثل النقد العربي الحديث محكوم بهذه اللغة العربية التي يستخدمها كل من الأديب والناقد، ولا السبيل إلى الفكاك من تأثيرها.

وثاني هذه المكونات هو المجتمع العربي الحديث بجميع جوانبه، إن الإنشاء العربي الحديث، سواء أكان أدبا أم نقدا، هو إنشاء اجتماعي SOCIAL DISCOURES ينتجه أعضاء في هذا المجتمع (هما الكاتب والناقد) لأعضاء آخرين هم القراء، استجابة لحاجات اجتماعية محكومة بزمان ومكان، وجملة ظروف متنوعة، وهم ينتجون ما ينتجون ضمن مؤسسات اجتماعية لها شروطها، وأعرافها، وأنظمتها، وأهدافها وإجراءاتها، وقوانينها، وعاداتها التي تؤثر على نحو أو آخر في تشكيل هذا الإنشاء الذي نقرؤه أدبا أو نقدا.

وثالث هذه المكونات هو العلاقة مع الخارجي – الآخر– غير العربي THE OUTSIDER إن الإنشاء العربي الحديث أدبا ونقدا أنتج في ظروف مواجهة واسعة وشاملة ومتعددة المستويات والجوانب والوجوه مع الآخر – وهو في هذه الحالة أوروبا، إن الأدب العربي الحديث، والنقد العربي الحديث ظهرا في ظل الاحتكاك بالآخر الأوروبي سياسيا وعسكريا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وأدبيا، وقد تركت هذه المواجهة بصمات واضحة على كل من الأدب والنقد في المجتمع العربي الحديث، وبكلمات أخرى لقد كانت هذه المواجهة مكونا رئيسيا من مكوناتها، ولذلك فليس هناك من سبيل لدراسة هذين الإنشاءين دون النظر في دور هذا المكون وتبين أثره في تشكيل كل من النص الأدبي العربي الحديث، والنص النقدي العربي الحديث.

ولكن اشتراك الإنشاءين الأدبي والنقدي في الأداة – التي هي اللغة – ومن ثم في المكونات الرئيسية الأخرى – المجتمع العربي الحديث، والمواجهة الشاملة مع أوروبا – لا يعنى محو كل تمييز فيما بينها، فرغم كل ما تقدم من اتحاد في الأداة والمكونات بين الأدب والنقد، إلا أننا نظل نشير إلى الأول منهما على أنه أدب وإلى

الثاني على أنه نقد أدبي، أي أن هناك اختلافا في طبيعة كلا الإنشاءين يسوغ استخدام مصطلحين مختلفين للإشارة إلى كل منهما.

والحقيقة أن الإنشاء الأدبي LITERARY DISCOURSE يستخدم اللغة استخداما مختلفا عن استخدام الإنشاء النقدي CRITICAL DISCOURSE لها، وإذا كان لكل إنشاء عدة وظائف، فإن مما لا شك فيه أن الوظيفة السائدة على غيرها من الوظائف الأخرى في الإنشاء الأدبي هي الوظيفة الجمالية AESTHETIC FUNCITION التي تقف وراء أدبية الأدب LITERATINESS على حين أن اللغة في الإنشاء النقدي تستخدم لتسهيل عملية التفكير عن الإنشاء الأدبي في موضوع النقد، وهي لذلك تكاد تكون في مجملها مجموعة مصطلحات TERMS ومفاهيم CONCEPTS، تستخدم بقصد ووعي لدلالاتها المحددة تحديدا دقيقا ضمن الإطار النظري العام للعملية النقدية.

والواقع أن تفحصا دقيقا لأي نص نقدي في أية لغة من اللغات يوضح هذا، فنص على سبيل المثال كالتالي:

"ومن خلال منظور آخر يمكن القول أن النص المبدع، الذي أنتجه المؤلف هو تجربة فنية بالقوة، وأن العنصر الوحيد القادر على تحويلها إلى تجربة فنية هو المتلقى أو مستهلك هذه التجربة، وبالتالي فإن للمتلقي أو للقاري دورا هاما ربما يقارب في أهميته دور منتج هذا العمل، وأن دراسة العمل الأدبي لا يمكن أن تكون كاملة مستوفية لأهم جوانب العملية الأدبية ما لم تتطرق إلى هذا الدور الذي يلعبه القارئ في تحويله التجربة الفنية من دور القوة إلى دور الفعل [1].

تتضافر على تشكيله مفردات مثل:

---

[1] – أنظر عبد النبي اصطيف" قراءات غير متأنية في النقد المعاصر، في البحث عن دور القارئ" المعرفة دمشق، السنة الواحدة والعشرون العدد ٢٥١، كانون الثاني ١٩٨٣، ص ٢٥٠.

"النص، والمبدع، والمؤلف والتجربة الفنية، والموجودة بالقوة، والموجودة بالفعل، والمتلقي، والقارئ، والتحويل، والإنتاج، والدور والعملية الأدبية وغيرها".

وكلها مصطلحات ذات دلالات محددة الغرض منها تسهيل عملية التفكير المنظم عن الأدب والتي هي جوهر العملية النقدية.

وعلى الرغم من هذا الفارق الأساسي في توظيف كل من الأدب والنقد للغة، إلا أن الصلة بينهما صلة عضوية، تصل إلى تحديد طبيعة النقد الأدبي ذاتها، فالأدب يمارس تأثيرا محددا على طبيعة النقد لأن هذا الأخير محكوم بموضوعة الذي هو الأدب، وإلا لكان نقدا آخرا غير النقد الأدبي.

وفضلا عن ذلك فإن الأدب حاضر أبدا في النقد الأدبي، إذ لا يمكن أن يخلو نص نقدي من حضور نص أدبي فيه بشكل من الأشكال، والدارس لهذا الحضور يمكن أن يصنفه في الأشكال الأربعة التالية:

- الحضور الصريح.
- الحضور الضمني.
- الحضور بالفعل.
- الحضور بالقوة.

## الحضور الصريح EXPLICIT PRESENCE

فأما الحضور الصريح للنص الأدبي في النص النقدي فغالبا ما يكون في النقد التطبيقي، فعندما يواجه ناقد ما نصا أدبيا معينا (قصة قصيرة أو قصيدة غنائية أو ملحمة، أو رواية أو مسرحية) يشرحه، ويحلله، ويفسره، ويوازن بينه وغيره من النصوص، ويصدر حكما بشأنه، ويوثق هذه الفعاليات ويدلل عليها بمقبوسات من هذا النص، يكون حضور الأدب في نصه النقدي حضورا صريحا.

والأمثلة على ذلك كثيرة لأن جل النصوص النقدية التطبيقية تتخللها شواهد من النصوص الأدبية المدروسة (الموثقة أو غير الموثقة).

### ب – الحضور الضمني IMPLICIT PRESENCE

وأما الحضور الضمني فيكون في النقد النظري أو فيما يسمى عادة بأبحاث نظرية الأدب، وذلك عندما يتحدث الناقد عن أمور تتصل بطبيعة الأدب أو وظيفته أو حدوده أو أعرافه، أو قواعده أو نواظم إنتاجه وما إلى ذلك، فعلى الرغم من أنه لا يشير على نحو صريح إلى هذا النص، أو ذاك من نصوص الأدب المعنى بدراسته إلا أنه يفكر ضمنا بنصوص أدبية محددة، وإن كان لا يذكرها صراحة أو يفصح عنها بإشارة موثقة.

والواقع أن قارئ النص النقدي يستطيع إذا ما أوتي ثقافة واسعة، أن يكتشف هذه النصوص من غير كبير عناء، فعلى سبيل المثال أن ارسطو عندما تحدث في كتابه عن فن الشعر **POETIES** عن المحاكاة وأدواتها وموضوعها، وعن المأساة والملهاة ونظرية التطهير، ووحدة العمل، وغير ذلك، إنما كان يصدر عن نصوص الأدب اليوناني التي انتجها الشعب اليوناني حتى عصره، وعلى الرغم من أنه لم يكن يشير في كل فكرة إلى النص الأدبي الذي يتأمل فيه ضمنا، فإن دارس الأدب اليوناني يستطيع أن يوثق هذه الأفكار بإشارات واسعة إلى نصوص محددة من هذا الأدب.

### ج– الحضور الفعلي الحقيقي REAL PRESENCE

ويكون هذا عندما يشير الناقد صراحة أو ضمنا إلى نص أدبي معين، أو إلى مجموعة نصوص أدبية يدافع عنها، أو يسوغ إنتاجها، أو ينتقدها أو يرفضها، أو يشرح ما غمض منها، أو يفسرها ..الخ، إن هذه النصوص موجودة بالفعل، لقد كتبها كتاب معينون في عصر الناقد أو في عصور سبقته بلغته أو بلغات أخرى،

ولأنها موجودة فعلا فهو قد قرأها فعلا بلغتها الأم، أو مترجمة، ويستطيع كذلك أي قارئ لنقده أن يعود إليها ويقرأها بدوره إذا ما رغب في ذلك.

### د- الحضور بالقوة POTENTIAL PRESENCE

ويكون ذلك عندما يكتب الناقد في النقد النظري أو الشعرية POETIES أو نظرية الأدب، ولا يكتفي بالصدور عن النصوص الأدبية الموجودة بالفعل، بل يمضي إلى ما ورائها من نصوص أدبية ممكنة، أي موجودة بالقوة يمكن لأي كان أن ينتجها إذا ما اقتنع بمحاجة ذلك الناقد النظري بشأنها، فعلى سبيل المثال جميع الروايات ذات نهاية واحدة، ولكن لو جاء ناقد عربي ما وتحدث عن نص روائي بنهايتين أو أكثر (مستلهما في ذلك رواية الكاتب الإنجليزي جوف فاواز JOHN FOWLES امرأة الملازم الفرنسي، المعنونة بـ THE FRENCH LIEUTRNANT'S WOMAN ، ودعا إلى إدخال هذا التكنيك إلى عالم الرواية العربية وقدم ما يسوغ ذلك، وناقش النتائج المرجوة أو تحقق ذلك على يد روائي ما، فهو يشير في نصه الأدبي إلى نص أدبي عربي موجود بالقوة، يمكن أن يظهر إلى حيز الوجود ويرى النور على يد كاتب ما يقتنع بجدوى تجربة كهذه في أي وقت في المستقبل القريب أو البعيد.

والحقيقة أن كثيرا من الكتابات النقدية المعاصرة في ميدان الأدب تصدر عن نصوص أدبية ممكنة، أو موجودة بالقوة، فكما أن النظام اللغوي LANGUE ينبغي ألا يستغرق النصوص اللغوية الموجودة بالفعل فقط، بل يستوعب كذلك النصوص اللغوية الممكنة، أو الموجودة بالقوة، فإن النظام الأدبي، أو الشعرية أو نظرية الأدب ينبغي ألا ينظم النصوص الأدبية الموجودة بالفعل فقط، بل يتعداها إلى النصوص الموجودة بالقوة، وبالتالي يتمكن من ممارسة دور إيجابي طليعي في تطوير الإنتاج الأدبي بما يخدم قيم المجتمع المعنى به.